الفصل الثالث عشر

تويما

في اليوم التالي لعودتنا كنا ـ أنا وفارس ـ مستلقين على إحدى الهضاب نراقب باسترخاء قطعان والده المتناثرة. تحدث فارس عن حبيبته بشاعرية المحب وعاطفة العاشق قائلاً: «التي تقترب في هودجها... المختبئة خلف أشعار الخيمة... المحروسة... التي سيحملها الهودج عبر الوادي الظليل العميق حتى تحمّر الشمس خديها بشعاعها».

واقتربت بدوية تركب ناقة وتسوق أخرى وصغيرها أمامها. وصاح فارس «تويما»! إنها صديقة تويما. وانزلقت عن ذلولها وتحدثت إلى الحيوانات التي توقفت مطيعة التعليمات وانتظرت.

وسألها فارس: «أين أختي»؟ فأجابت مبتسمة: «إنها تنتظر عودتك يوماً بعد يوم». ونهض فارس واقترب من الفتاة قائلاً: «اطلبي منها أن تتذكر تلك الليالي التي كنا نتقابل خلالها بالسر. أخبري حبيبتي أنني أتوق للسير معها فوق الكثبان الرملية. إن أطراف ثوبها سوف تمحو آثار أقدامنا ولن يعرف أحد مكاننا». واحتجت الفتاة قائلة «يا فارس»! فرد قائلاً: «قولي لها إن نصل خنجري يذكرني أنني لن يهدأ لي بال حتى يستجيب صدرها النحيل لعواطف حبي».

بعد بضعة ساعات وصلت تويما إذ إن صديقتها أخبرتها بعودة حبيبها. ظهرت فوق قمة الهضبة ثم سحبت الأَعِنَّة، وقفزت من فوق فرسها الشقراء، ووضعت الرسن بين قائمتيها الأماميتين، وربطتها فوق عرقوبها، وبهذا تستطيع الفرس أن ترعى دون أن تتمكن من الهرب.

واتجهت تويما برشاقة الغزال فذهبنا لملاقاتها. ألقت بذراعيها حول عنق فارس وقالت برقة: «يا حياتي» فأجابها: «يا وعدي»! ثم جلسنا معاً فوق قمة الهضبة. وتطلعت تويما حولها وقالت بضحكة عابثة: «أين باقة الأزهار البرية؟ باقتي الجميلة الكبيرة»؟

ـ «باقة أزهارك»؟

ـ «نعم! والخلاخيل»؟

وتظاهر فارس بالجدية وخشخش بالخلاخيل في جيبه. ورمقته تويما نظرة استغراب وقفزت محاولة الوصول إلى يده التي في جيبه، ولكنه أمسك ذراعها بيده الأخرى وقال: «يجب أن تغمضي عينيك ولا تفتحيهما حتى أقبلهما».

فعلت تويما كما أمر فارس. أخرج فارس من جيبه الخلاخيل الفضية التي اشتراها في الجوف وربطها حول كاحلي تويما. وتوسلت كثيراً ليسمح لها بإلقاء نظرة واحدة على الهدية على الأقل فصاح فارس: «يجب أولاً أن أزينك بأزهار الصحراء الخالدة». وأرخى المحب ضفائر الفتاة السوداء اللامعة واحدة بعد واحدة، وأدخل فيها أربع عشرة ريشة بيضاء رائعة طويلة (طولها قدم) من ريش النعام. وبعد أن انتهى من ذلك سحب الضفائر إلى الأمام فوق كتفيها وجمعها في إحدى يديه حتى تشكل الريشات المرتجفة باقة واحدة، ثم قبّل جفنيها وقال: «ها هي يا أختاه! باقة الأزهار الدائمة التي وعدتك بها. فتحت عينيها وحدّقت بإعجاب في هدية حبيبها. ثم دفنت وجهها بالريشات وطوقته بذراعيها.

مال فارس برأسه على كتفها ووضع يده على قلبها قائلاً «إنه يقفز كالأرنب البري». فهمست قائلة: «أليفاً بين يديك». فسألها فارس: «ألم تسمحي من قبل لشاب بوضع يده على قلبك»؟ وتوردّت قائلة: «مطلقاً! أنت فقط».